

العمارة الحموية والاستجمامية في موقع تهودة

Thermal and relaxation architecture in archaeological site of tahouda

د. دحمان رياض¹

مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط-الجزائر LECMMA

جامعة قالمة 8 ماي 1945م

البريد الإلكتروني: dahmane.riad@univ-guelma.dz

أ. د. حاجي ياسين رابح

مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط الجزائر - جامعة الجزائر 2

البريد الإلكتروني المهني: yacine.rabah.hadji@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/12/02م. تاريخ القبول: 2025/12/27م. تاريخ النشر: 2025/12/31م.

الملخص:

تتطرق هذه الورقة البحثية إلى واحدة من أهم ما وجد من معالم بمدينة تهودة الأثرية (ثابوديوس في الوثائق الإيبيرية)، وهي الحمامات التي بقيت آثارها شاهدة على أن سكان هذه المنطقة جعلوا منها مكانا للاستجمام، وجعلوها من متطلبات حياتهم اليومية، ورغم الأبحاث القليلة حولها، إلا أن مواسم العمل الميداني بها من طرف فريق الباحث حاجي ياسين رابح استطاعت التوصل إلى فهم مكوناتها وميكانيزمات اشتغالها من جهة، ومن جهة ثانية رسم خطة واضحة للحفاظ عليها لتبقى شاهدة على مرور حضارة معلومة البنيان بتقنيات قاومت الطبيعة والزمان.

الكلمات المفتاحية: تهودة، ثابوديوس، حمامات، هيبوكوست، عمارة رومانية.

Abstract:

This article addresses one of the most important monuments found in the city of Thouda (ancien Thabudeos), namely the baths, whose remains prove that the inhabitants of this region made it a place for bathing and leisure, and made it one of the requirements of their daily life. Despite the modest research on it, the excavation seasons by the team of researcher HADJI Yacine Rabah were able to reach an understanding of its components and the mechanisms of its functioning on the one hand, On the other hand, he drew up a clear plan to preserve it so, that it remains a witness of the passage of a civilization known for its structure, and technologies that have resisted nature and time.

Keywords: Thabudeos, Tahouda, Baths, Hypocauste, Roman Architecture .

¹ - مرسل المقال.

مقدمة:

مدينة ثابوديوس (تهودة حالياً) واحدة من التجمعات السكانية التي لعبت دوراً هاماً خلال الفترتين الرومانية والبيزنطية، فتاريخها يشهد على ذلك، كما أنّ مخلفاتها المادية من آثار للعمران تشهد هي الأخرى على استيطان بشري داخلها دام فترة لا بأس بها من الزمن، ومن أبرز ما وجد بها ذلك التحصين الدفاعي، وتلك الحمامات موضوع دراستنا في هذه الورقة البحثية.

فخلال مواسم التنقيب منذ 2011م إلى غاية اليوم يسعى فريق البحث إلى فهم هذه المنشأة من حيث التركيب الهندسي وميكانيزمات اشتغالها، وهي الانطلاقة التي انتهجت وسوف تنتهج لاحقاً للإجابة على عديد التساؤلات، خاصة ما تعلق بالقسم الساخن للحمامات، كونه الأكثر إثارة من حيث العناصر والمتغيرات التي قد يحتويها على اختلاف القسم البارد، فإن تكلمنا عن الأحواض فإنها ترتبط في القسم الساخن بنظام التسخين، وإن تكلمنا عن حركية الهواء داخلها، نتكلم عن ديناميكية توزيعها، وحين نتحدث عن الديكور نتكلم عن الفسيفساء والتي حضرت في القسم الساخن بنسبة أكبر من البارد (هذا من خلال ما رصد في حمامات عديدة تؤرخ بالفترة الرومانية، خاصة في القرون الأولى للميلاد).

ومن مجمل التساؤلات حول حمامات ثابوديوس (تهودة)، يشكّل مصدر المياه إشكالاً حقيقياً لمعرفة مسارها داخل الحمامات، خاصة وأنه لحدّ الآن لم نصل إلى مكان وجود الخزّان المسؤول عن توفيرها، ناهيك عن القنوات الرابطة بين المصدر والأحواض.

وخلال عمليات البحث بالحمامات كان تساؤلنا يصبّ في إمكانية التعرف على وظيفة كل قاعة، فهل تمّ التوصل إلى ذلك؟ أم هناك عناصر غائبة غير متوفرة لحدّ الآن؟ على الرغم من الفصل بين قسمي الحمامات البارد والساخن، إلى جانب تساؤلنا عن المدخل الرئيسي للحمامات والذي يحدد المسار الحموي للأشخاص الوافدين عليها.

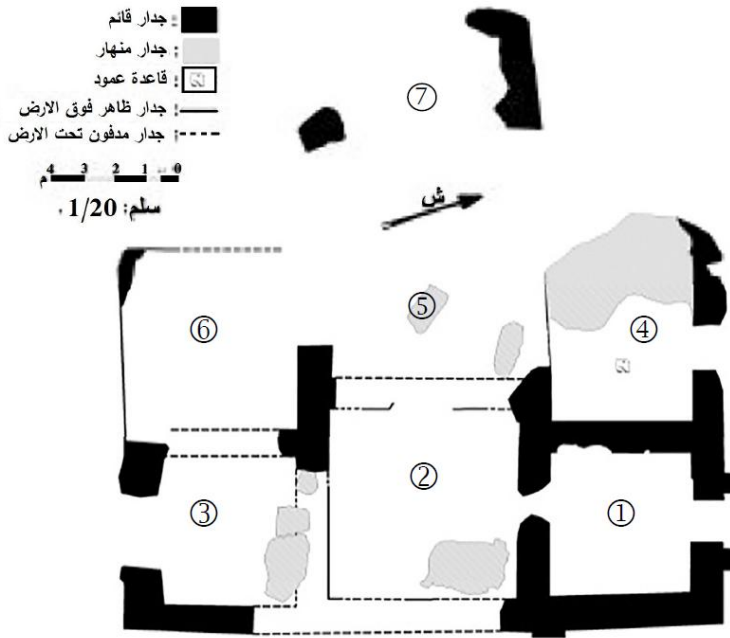
كما وضعت خطة عمل ترتكز على تنظيف محيط المبنى وتسجيل جميع المعطيات المتعلقة به، سيّما التصوير الفوتوغرافي والرسم والرفع الأثري والطبقي، مع احترام تام لمختلف الشواهد الأثرية التي تؤرخ لتعاقب حضاري استغلّ المكان واستوطن به فترة من الزمن.

I. لمحة حول تاريخ الأبحاث حول حمامات ثابوديوس

تأخذ الحمامات موقعاً في الجهة الشمالية-الغربية للقلعة العسكرية لمدينة تهودة الأثرية وعلى ارتفاع 74م فوق سطح البحر، إحداثياتها "E 05°53'39.09" و "N 34°48'07.27"

أجريت بالموقع أولى الحفريات سنة 1899م من طرف النقيب توشار، ومن المعطيات التي قدمها عن الحمامات تمثلت في: بقايا نظام التسخين تحت الأرضي وقاعة التّعريق وفسيفساء وبقايا أنابيب فخارية وبقايا بلاطات آجورية استعملت لتغطية جدران القسم الساخن للحمامات². إلى جانب توشار ورد ذكر الحمامات عند قزال في الأطلس الأثري³، كما ذكرت عند باراداز على أنّ الجزء الظاهر منها هو القسم العلوي للحمامات⁴. بيريانت⁵ هو الآخر اعتمد على ما ذكره توشار، ونشر مخطط جوبير⁶ بالخطأ لحمامات عين توتة على أنه حمامات تابوديوس⁷.

وخلال المدة التي تلت هذه الأعمال يدخل البحث حول موقع تهودة الأثري، ومن ثم الحمامات حالة ركود تام الى غاية الدراسات الاستكشافية للموقع منذ سنة 2003م الى غاية سنة 2011م السنة التي انطلقت فيها أولى الحفريات في الموقع من طرف الاستاذ الباحث حاجي ياسين رابح، والفريق المرافق له، فقد نشر اول مخطط للحمامات بعد عمليات التنظيف الشامل وبداية المجسات في مختلف أجزائها منذ سنة 2015م الى يومنا (المخطط 01)، ومن خلال هذا المخطط تم التعرف على وظيفة بعض القاعات والتميز بين قسميها البارد والساخن⁸.



المخطط 01: مخطط حمامات تابوديوس (تهودة).
عن: حاجي، ياسين رابح، 2015م، ص. 62.

TOUCHARD, J. L., 1901, pp. 151-155. -2

GSELL, S., 1911, Fn° 49, n° 01. -3

BARADEZ, J., 1949, p. 287. -4

BIREBENT, J., 1962. -5

JAUBERT, H., 1903, pp. 317-323. -6

7- حاجي، ياسين رابح؛ دحمان، رياض؛ ربحان، فتحي؛ بودر، أمال، 2016م، ص. 44.

8- دحمان، رياض؛ حاجي، ياسين رابح، 2019م، ص ص. 53-65.

II. موقع الحمامات في نطاق الجزء المكتشف من مدينة ثابوديوس:

لم تقدم مدينة تهودة الأثرية -إلى حد الآن- الكثير من مبانيها رغم الأهمية التاريخية التي لعبتها في العصرين القديم والوسيط، فالظاهر منها تلك القلعة العسكرية التي تحوي المنشأة الحموية، وبعض أجزاء العمران الذي يزوج العراقة الانشائية في فلسفة المعمار للفترة الرومانية-البيزنطية والعمارة الطينية الصحراوية، رغم هذا تشكّل الحمامات مكانتها الصحية والترفيهية والاجتماعية داخل المنظومة العسكرية للمدينة من جهة، وفي القلعة العسكرية في حد ذاتها من جهة أخرى.

ونظير الأهمية التي لعبتها لدى الأفراد والجماعات في العصور القديمة، الأمر الذي أدى إلى جعلها في القلعة سألقة الذكر **(الصورة الجوية 01)**، وهي خاصية نجدها في اغلب القلاع العسكرية الدفاعية التي بنيت في الفترة البيزنطية تحت حكم الحاكم العسكري صولومونيس في فترته الثانية 539م إلى 544م كقلعة تيمقاد، حيث نجد مكان الحمامات في الشمالية الغربية من القلعة.

وجدت ميزة أخرى لدى السلطة العسكرية البيزنطية في إفريقيا هو ادماج المنشآت السابقة لاحتلالهم للمنطقة، وهو الأمر الذي أدى بنا إلى عدم اغفالها، هي إمكانية وجود الحمامات قبل الاستقرار البيزنطي وتم دمجها في هذه الجهة من القلعة للاستفادة من جدرانها من جهة، وخصوصيتها الوظيفية من جهة ثانية. ومثال ذلك واضح في قلعة كالاما (قالمة) التي تعود للفترة البيزنطية، حيث أورخت حماماتها المدمجة في أسوارها التحصينية بنهاية القرن الثاني وبداية الثالث الميلاديين⁹.

من جانب آخر، أدى بناء الحمامات في ذلك الحيز دون سواه، وهو مكان من المرجح، سمح لها بالتزوّد بالمياه القادمة إليها عبر قنوات التّموين¹⁰ من الشمال، لكن ما يثير تساؤلنا أنّه لحدّ الآن لا يوجد أي دليل عن الخزانات، فالمعروف أنّ الحمامات (عامّة كانت أو خاصّة) تستهلك كمية كبيرة من المياه، ولا يمكن الاعتماد على المياه الجارية داخل القنوات دون تجميع، إذ يلجأ في كثير من الأحيان إلى الخزانات حتى يكون التّحكّم فيها سهلاً، سواء من حيث مقدار الاستهلاك أو أوقات الاستحمام والاستغلال، والأخذ منها بالقدر المطلوب.

⁹ - DURLIAT, J., 1981, p. 17.

¹⁰ - للمزيد من التفصيل حول القناة الناقلة للمياه للفترة القديمة لتهودة الأثرية يراجع: AMMARI, A.; REMINI, B., 2019, p. 34-51.; HADJI, Y-R., 2024, p. 79.; TAMBURRINO, E., 2024, pp. 87-93.



الصورة الجوية 01: موقع حمامات تهودة الأثرية داخل القلعة الأثرية.

عن: Google Earth, 2025.

III. نظام التسخين بحمامات ثابوديوس:

نظام التسخين بالحمامات للفترة الرومانية، هو ذلك التركيب المتشابه بين جملة من العناصر الإنشائية التي تشكّل الأرضية المحمولة، لتسمح للهواء الساخن المرور بكل انسيابية وفق ديناميكية حرارية، ولا يتوقف عند هذا المستوى، بل يضمن وصول الحرارة الى كامل أجزائه عبر تجاوزيف جدارية (**الصورة 01**).



الصورة 01: التجاويف الجدارية بحمامات ثابوديوس.

عن: حاجي، ياسين رابح، 2018م.

هذه الحرارة تضمنها أفران خاصة تفتح من جهة على قاعة الحمامات الساخنة، ومن الجهة الأخرى على رواق الخدمات.

تجتمع بحمامات ثابوديوس هذه العناصر لتبرز بوضوح في القاعة الساخنة (**التعريق**) (**المخطط 01**)، حيث وصل مستوى الحفر إلى الأعمدة أسفل الأرضية الفسيفسائية، ومن مميزات هذه الأعمدة أنها مبنية وفق ما ذكره فيروفيوس، وحسب ما تم العثور عليه سابقا في عديد الحمامات الرومانية في الجزائر وفي غيرها من المواقع، والتي تتمثل في الآجورات رباعية الشكل التي تتوافق فيما بينها من حيث الحجم، فمعدّل مقاسات أضلاعها ما بين 19سم و20 سم (**الصورة 02**).



الصورة 02: أجزاء من أعمدة نظام التسخين بقاعة التّعريق لحمامات ثابوديوس.

عن: دحمان رياض، 2019م.

أما علو الأعمدة المشكّلة لدعامات الأرضية فلا يتعدى علوها 80سم والمسافة بين كل عمود وآخر في حدود 40سم أو 45سم، هذه الأعمدة تضمن للأرضية المحمولة فوقها متانة كافية، فمن جهة فهي حاملة للأرضية، ومن جهة أخرى تحمل الوافدين على هذه القاعات.

العنصر الثاني الذي عثر عليه بحمامات ثابوديوس هو الفرن أو الموقد، هذا الأخير، وجد لصيقاً بالجدار الشمالي لقاعة التّعريق، يفتح عليها من جهة ومن الطرف الآخر على رواق الخدمات، بهذه الخاصية يضمن مقدار كبيراً من الكتلة الحرارية التي تنبعث منها، وتوجه مباشرة إلى القاعة سواء تحت أرضيتها أو عمودياً عبر التجاويف المعدّة لهذا الغرض (**الصورة 03**).



الصورة 03: فرن التسخين لقاعة التّعريق بحمامات ثابوديوس.

عن: حاجي، ياسين رابح، 2018م.

IV. منهجية العمل الميداني بحمامات ثابوديوس:

منذ المواسم الأولى لفريق البحث بحمامات ثابوديوس رسمت خطة اتبعت أثناء الحفر تركز على الاحترام التام للشواهد الأثرية وطبقات الموقع، حتى يفهم منها التعاقب الحضاري والاستغلال البشري منذ بناءه أول مرة حتى التخلي عليه في وقت قريب (حوالي القرن 16 ميلادي).

وكانت الطبقات الأولى تعبر عن استيطان الأفراد التي جعلت من الموقع محطة للعيش والدلائل الثابتة لهذا الاستغلال تتمثل في بقايا المنازل الطينية ونفاياتها، وتعدى ذلك إلى دفن موتاهم وفق ما تم العثور عليه من قبرين يحتويان هيكلين عظميين يعودان لطفلين صغيرين، وإلى جانب قطع من الفخار العادي متوافق ومتجانس من حيث اللون والطينة المستعملة في هذه الطبقة الهشة يغلب عليها الرماد الصادر من مواقع الطهي¹¹.

ثم تليها طبقة أكثر صلابة من سابقتها لنصل إلى آخر طبقة في القاعة الساخنة (التعريق) التي بنيت أرضيتها المحمولة فوق أعمدة من الحجر المربع، مقاساته تتوافق مع ما وجد في الكثير من الحمامات ما بين 19 سم و 20 سم، هذه الأعمدة متقاربة فيما بينها بمسافة ما بين 40 سم و 45 سم ومسكت الأجورات بملاط كلسي، يعلوها طبقة من الفسيفساء الهندسية.

كل هذا النزول الطبقي، سار وفق تقنيات الحفر والتنقيب الدقيق المصحوب بعملية تنظيف شامل للحمامات بإزالة طبقة الردم وإبعادها عن الموقع بمسافة تصل إلى 30 م (الصورة 04).



الصورة 04: تربية جزء من الحمامات والنزول الطبقي.

عن: دحمان، رياض، 2019م.

¹¹ - حاجي، ياسين رابح، 2015م، ص. 51

أثناء عملية الحفر تم استخراج عناصر استعملت في تسقيف المبنى، وتمثلت في قطع آجورية بشكل أنابيب صغيرة من نمط أ¹² استعملت للحصول على نقوسات وانحناءات القباب، الى جانب قطع فخارية مختلفة الأحجام.

بالعودة الى القاعة الساخنة (التعريق) وإلى جانب الوصول الى طبقة الأرضية الفسيفسائية، تم فتح خندق في جهتها الجنوبية للوصول إلى أعمدة الهيوكوست، ومن الجهة الشمالية التعرف على الفرن المسؤول عن تسخينها، الى جانب الفتحات المهيأة في جدرانها للسماح للحرارة بالانتشار داخلها بشكل عمودي.

بالإضافة إلى حفر الرّواق الشمالي المعدّ للخدمات والذي يمتد عرضه من جدار الحمّامات حتى سور التحصين الدفاعي، وقد تمت عملية الحفر بعد تحديد أماكن وضع المجسات في قاعات الحمّامات، وكذا الرفع الأثري لمستوى الأرضية باستعمال جهاز التيودوليت للتعرف على مختلف المستويات، ومقارنة العمق الذي يتوصل إليه بين موسم وآخر¹³ (الصورة 05).



الصورة 05: الرفع الأثري باستعمال التيودوليت.

عن: حاجي، ياسين رابح، 2018م.

كل هذه الخطوات التي اتبعت في الحمّامات كانت مصحوبة بتصوير فوطوغرافي لجميع أجزائها وأثناء كل خطوة أو نزول طبقي، إلى جانب الرّسم والرفع الأثريين وكذا الطبقي حتى نتمكّن من التعرف على كل متغيّر يحدث بين موسم وآخر (الصورة 06).

¹²- حاجي، ياسين رابح؛ دحمان، رياض؛ ربحان، فتحي؛ بودر، أمال، 2016م، ص. 45.

¹³- حاجي، ياسين رابح، وآخرون، 2019م، ص ص. 199-220.



الصورة 06: الرفع الأثري والطبقي لجزء من الحمامات.

عن: دحمان، رياض، 2015م.

للإشارة أنّ العمل مستمر للوصول إلى فهم شامل لمكونات هذه المنشأة ونظام اشتغالها، وكذا تأريخها وفق مرتكزات حقيقية والتّعرف على مدّة استغلال المبنى.

خاتمة :

خلصت هذه الدّراسة إلى ضبط جملة من النقاط حول العمارة الاستجمامية بمدينة تهودة الأثرية، في مقدّمتها أهمية المدينة التي وقّرت لساكنيها مكانا للالتقاء لغاية الاستحمام من جهة، والاستجمام من جهة أخرى تمثّل في الحمامات، هذه الأخيرة ذات مساحة معتبرة مبنية وفق نمط المخطط التّنائلي لما له من خصائص وظيفية وبنوية، حيث وقّرت قسمين إحداها ساخن والآخر بارد بقاعات مختلفة، وخلصت الاستكشافات إلى تعيين عناصر قسمها الساخن المتمثلة في نظام التّسخين تحت الأرضي الذي يعتمد على توزيع الحرارة أسفل القاعات إلى جانب تسخينها بشكل عمودي، مما يوفّر ديناميكية حرارية تتحكّم في حدتها أفران التّسخين، وبالقاعة الساخنة (التّعريق) التي وصل البحث فيها إلى مستواها الأول (أعمدة نظام التسخين) تم اكتشاف بها فسيفساء هندسية تمّ تنظيف جزء منها، كما تمّ تصويره¹⁴ ورفع الأثري، مما يبقّيها شاهدة على نمو الفكر الإبداعي في الإنشاء والديكور، رغم هذا فهي تحتاج إلى صيانة دورية للحفاظ عليها وتغطيتها بسقف¹⁵ لحمايتها من عوامل التّلف المتمثلة في الأساس في تراكم الأتربة فوقها

¹⁴ - عريج، نجم الدين وآخرون، 2019م، ص. 201.؛ HADJI, Y-R., 2024, p. 82.

¹⁵ - على السلطات المعنية والمتمثلة في مديرية الثقافة والفنون لولاية بسكرة ان تقوم بتوفير الحماية المادية المتمثلة في سقف يتماشى وطبيعة مناخ المنطقة.

من جهة، ومن جهة أخرى تم تدعيم بقايا الجدران الآيلة للسقوط، وتثبيت الفسيفساء، حتى تتماسك أثناء عمليات التتقيب وبعدها.

قائمة البibliوغرافيا:

1. حاجي، ياسين رابح؛ دحمان، رياض؛ فتحي، ريجان؛ بودر، أمال، 2016م، "مكتشفات موقع تهودة الأثري"، مجلة تراث الزيبان، 1، 1، ص ص. 33-49.
2. حاجي، ياسين رابح، وآخرون=عريج، نجم الدين؛ مقدور، شمس الدين؛ دحمان، رياض؛ زعباط، مصطفى؛ شعبان أمال؛ شميني، سليمان؛ درقال، عادل؛ تريجة، السعيد؛ حاجي، ياسين رابح، 2019م، "حفريات تهودة الأثرية-أبعاد وآفاق تنموية"، مجلة تراث الزيبان، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول التراث في منطقة الزاب الشرقي "منطقة تهودة أنموذجاً"، ص ص. 199-220.
3. حاجي، ياسين رابح، 2015م، "مكتشفات ثابوديوس وبادياس الأثريين"، مجلة دراسات أثرية، 13، 01، ص ص. 49-68.
4. دحمان رياض؛ حاجي، ياسين رابح، 2019م، "الحمامات الرومانية بمقاطعة نوميديا، دراسة حالة حمامات ثابوديوس (تهودة الأثرية)"، مجلة تراث الزيبان، أعمال الملتقى الوطني الثاني حول التراث في منطقة الزاب الشرقي، منطقة تهودة أنموذجاً، 2، ص ص. 53-65.
5. AMMARI, A.; REMINI, B., 2019, «L'eau dans les villes de l'époque romaine, quelques cas algériens», in revue Turath el ziban, pp. 34-51.
6. BARADEZ, J., 1949, Fossatum Africae, Recherches aériennes sur l'organisation des confins sahariens à l'époque romaine, Paris.
7. BIREBENT, J., 1962, Aquae romanae, recherches d'hydraulique romaine dans l'Est algérien, Alger.
8. DURLIAT, J., 1981, Les dédicaces d'ouvrage de défense dans l'Afrique Byzantine, école française de Rome.
9. GSELL, S., 1911, Atlas Archéologique de l'Algérie, Paris.
10. HADJI, Y-R., «Tahouda, a numidian limes' human settlement», in Limes project, Life between Mediterranean and Sahara, Padova, 2024, pp. 77-85.
11. JAUBERT, H., 1903, «Reliquaires d'henchir-akhrif et ruines romaines d'Ain-Touta», in RSAC, 37, pp. 317-323.
12. TAMBURRINO, E., «Mapping the 'hydraulicscape' in the Biskra region, an interim report from the 2019 survey campaign», in Limes project, Life between Mediterranean and Sahara, Padova, 2024, pp. 87-93.
13. TOUCHARD, J. L., 1901, «Notes sur les fouilles faites à Tehouda (cercle de Biskra)», in RSAC, 35, pp. 151-155.